طيف الحبيبة في الشعر العربي قبل الإسلام

نحو تطبيق في شعر عنترة

د. عبدالإله الصائغ
كلية الآداب / جامعة الموصل

مقدمة : هذا موضوع جدير بالبحث باعتداده زاوية للنظر فائقة الأهمية تلقى أضواءها على الشعر لتستنطق دلالته التي نحسبها تعليلا مناسباً لجمال الصورة وحذقها

واذا كان الشعر ماقبل الإسلام مكتنزاً بصور الحبيبة على مستويي اليقظة واصطناع الحلم فإن شعر عنترة الذي يبعث المسرة والدهشة في نفس المتلقي يتكيء كثيراً على الطيف الذي يجلو الحبيبة في اطار رغبات الشاعر .. وتأسيساً على هذا النظر نهض بحثنا على أعمدة ظناً منه ان هذه الأعمدة قادرة على احتمال وجهة نظره التي تنسلك في ان طيف الحبيبة يشكل بؤرة الهمّ الوجداني والفني عند واحد من الشعراء الشاهقين الذين أتقنوا صناعة الشعر ورفعوه إلى ذرى الابتداع والابتكار فكان جديرا بتحدّي الشعراء الفحول . « هل غادر الشعراء من متردّم × × × أم هل عرفت الدار بعد توهم » اما الأعمدة فهي :

اولا — التمهيد : وهو كفيل بملاحظة الطيف بين دلالات ثلاث (لغوية وتواضعية وتأسيسية) بما يؤثل الأواصر بين الخيال والطيف والحلم والرؤيا .

ثانياً — زيارة طيف الحبيبة لشعراء ماقبل الإسلام .

ثالثاً — طيف الحبيبة ورهبوت الداء عند عنترة .

رابعاً — طيف الحبيبة ورغبة الشفاء عند عنترة .

خامساً — سبيل عنترة إلى الفوز بصاحبة الطيف .

سادساً — تصاقب الطيف والطلل .

سابعاً — الخاتمة وثمار البحث .

تمهيد في دلالات الطيف (أولا —)

المستوى اللغوي : تقترب الدلالات وتتضاءل الفواصل بين مفردات الطيف والحلم والرؤيا والخيال في هذا المستوى ؛ والمعجمات العربية تعضد هذا الأقتراب وقد عولنا على (لسان العرب) لابن منظور ٧١١هـ و (القاموس المحيط) للفيروز ابادي ت ٨١٦ هـ(١) وما نحاوله لاحقاً هو ايجاز هذه المقاربات وفاق مادة كلّ مفردة ....

١ — طاف به الخيال طوفا : ألم به في النوم والفرّاء ت٢٠٧ يقول : الطائف والطيف سواء وهو ماكان خيال ، قارن قول ابي العيال الهذلي« ومنحتني جدّاءُ حين منحتني ××× فاذا بها وأبيكِ طيفُ جنون » .

ب — الطيف في كلام العرب الجنون وآية ذلك انهم يدعون الغَضب طيفاً لأن عقل المستفز بالغضب عزف عنه حتى يصير في صورة المجنون !! ومنه طيف الخيال الذي يراه النائم .

ت — الطائف هو الخادم الذي يخدمك برفق وعناية .

ث — طاف الخيال يطيف طيفاً و مطافاً : ألم في النوم ، فان قول كعب بن زهير : (أنى ألمّ بك الخيال يطيف ×× ومطافه لك ذكرةٌ وشعوف)

ج — الطيف : الخيال نفسه ، والطائف والطائفة من الشيء : جزء منه

ح — الحلم هو الرؤيا ، قال ابن سيدة ت ٤٥٨ حلم في نومه يحلم حلما واحتلم وانحلم وحلم به رآى له رؤيا أو رآه في النوم . فان قول بشر بن أبي خازم (أحق مارأيت أم احتلام) .

خ — الرؤيا والحلم مفردتان بمعنى واحد وهو مايراه النائم في نومه من الأشياء ولكن غلبت الرؤيا على مايراه من الخير والشيء الحسن وغلب الحلم على مايراه من الشر والقبيح (!)

د — حلم الرجل بالمرأة : إذا حلم في نومه انه يباشرها ، والحلم والاحتلام يعنيان المباشرة ونحوها في النوم .

المستوى التواضعي : ليس ثمة فرق كبير بين المستويين الأول والثاني بيد ان استعمال المفردة عبر الزمان قمين بتعريض دلالاتها إلى بعض التحوير والصقل ، ولقد كثر الذين لاحظوا طيف الخيال في الشعر و حاولوا تحديد معناه وتيسيره للنظر ، نذكر على سبيل المثال :

---

(١) تنظر المواد (طوف+ حلم + رأى + خيل)

* أبو هلال العسكري ت ٣٩٥ في (ديوان المعاني) * وأبو عبدالله الكتاني ت ٤٣٠ في (كتاب التشبيهات من اشعار أهل الأندلس) * والشريف المرتضى ت ٤٣٦ في (طيف الخيال) * والحصري القيرواني ت ٤٥٣ في (زهر الآداب) . واخوان الصفاء : من رجال النصف الثاني من القرن الرابع في (رسائل اخوان الصفاء) * والنويري ت ٧٣٢ في (نهاية الأرب) * وابن خلدون ت ٨٠٨ في مقدمته المعروفة .

ولعل أهم اثنين يمكن الأعتماد علىجهد يهما في استنباط المستوى التواضعي لطيف الحبيبة أو خيالها ، هما الشريف المرتضى وابن خلدون ، اما المحدثون فلا نعلم مؤلفاً أو باحثاً كرّس عملا متكاملا لدراسة طيف الخيال ، وعدم علمنا لاينفي احتمال وجود دراسة في هذا الصدد ، بيد أنها — على الأقل — لم تصل مكتباتنا العامة بعد ، يضاف إلى ذلك ان بعض الكتب افردت مباحث لطيف الخيال (٢) ومزاج القول ان طيف الخيال (زور الحبيبة من غير وعد يخشى مطله ويخاف ليه وفوته واللذة لم تحتسب ولم ترتقب ، يتضاعف بها الالتذاذ والأستمتاع ، وانه وصل من قاطع وزيارة من هاجر وعطاء من مانع وبذل من ضنين .... وهو لقاء واجتماع بين عاشقين لايشعر الرقباء بهما ولايخشى منع منهما ولا اطلاع عليهما ... وانه تمتع وتلذذ لايتعلق بهما تحريم ولاتجريم ولايدنو اليهما تأثيم ولاعيب ولاعار ... بيد انه باطل وغرور ومحال وزور ولا انتفاع بما لاأصل له وانما هو كالسراب اللامع وكلّ تخيل فاسد .. لانه سريع الزوال وشيك الأنتقال يهيج الشوق الساكن ويضرم الوجد الخامد ويذكر بغرام كان صاحبه عنه لاهياً أوساهيا..)(٣). ويعوّل على القوة المتخيلة في تخليق الطيف فهي (تخاطب الحواس بعد غيبة المحسوسات التي تتخيل وتتوهم الحقيقي وسواه) .. والشاعر يصنع احلامه نائماً ويقظا في مختبر القصيدة لأنه ذو حظ في الخيال عظيم (وقد يتخيل جملا على رأس نخلة أوحماراً له رأس انسان وهذه امور لاتحدث إلا في الحلم أو المخيلة) (٤) والصورة التي (يسمو بها الشاعر مزاج بين الخيال والحلم والواقع الحسي والذهني بألفاظ عذبة) (٥) ونزر

(٢) نحو : الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام ص ٢٧٥ وخصوبة القصيدة الجاهلية ص ٩٢ واتجاهات الغزل في عهد الطوائف ص ٢٣١ .

(٣) طيف الخيال ص ٥ — ٧ .

(٤) رسائل اخوان الصفاء ٤١٦/٣ .

(٥) اخوان الصفاء ص ٤٦ .

اولئك الشعراء الذين يزورهم طيف الحبيبة ولايشكون شحة ،فالحبيبة هي هي، والطيف لن يغير في طباعها شيئاً (٦) والشاعر هو هو عاشق متوهج لايبل غليله سوى وصل الحبيبة ، يتخيل وصلها في باله ويتمثل هيئات للوصل عديدة و(التمثيل والتخييل يعيدهما خياله في المنام فكأن الخيال الذي في النوم تصور في اليقظة أولا) (٧) وقد فطن طرفة ابن العبد إلى هذه الحيثيات فطرد خيال حبيبته ومنع زيارتها (فهو أول من طرد الخيال) اما قيس بن الخطيم في بائيته وعمرو بن قميئة في لاميته (نشير اليهما فيما بعد » فإنهما متحابا في طيف الحبيبة (ومن هاتين القطعتين اخذ الشعراء المحدثون اكثر معانيهم في الخيال) (٨) ومهما يكن الأمرفان طيف الحبيبة (مهم عند أهل الغرام يتوصل اليه بالمنام وانما تدعو الحاجة اليه عند طول الهجر وشدة الدجر ومقاساة نار الملل والسهر ... ثم تشعبت آراؤهم في التفنن بالخيال فمنهم من ردّه ملالاً وضجرا وشبه هذا ماسبق من حمله الضجر على ترك من هجر ... ومنهم من ذم النوم في قالب الأعتذار عن طيف الخيال كأنه يقول ان المنغصات في الدنيا لاتنفك عن الانسان حتى في النوم ، الا ترى ان من يحلم بمحبوبته أوشيء من مطلوبه فلا يرى إلا الآسف والقلق وزيادة الحرق وانه حلم أحدث أو ضرب —كذا — رأى ذلك في الصباح) (٩) واذا كان النقاد القدامى مهتمين بالتنظير وذكر الشواهد عند حديثهم عن طيف الخيال (١٠) فإن الآمدي ت ٣٧٠ ناقد جعل الطيف معياراً للنقد وأسماه (المذهب) (١١) والشريف المرتضى صنع كتاباً نقدياً اداره على الطيف وأسماه (المنهج) (١٢) .

المستوى التأسيسي : يلوذ الشاعر بالحلم ليفكك صورة الحاضر إلى اجزائها الصغرى ليعيد تشكليها وفق هواه فينشر عليها ألوان الماضي وعبقه وليعادل بالحلم طيف الحبيبة أوخيالها

---

(٦) ديوان المعاني ٢٧٦/١ وبعدها .

(٧) زهر الآداب ٧٥٤/٣ ، ٧٥٧ وانظر ديوان الصبابة (في الاحتيال على طيف الخيال..)١٢٢

(٨) نهاية الأرب ٢٣٧/٢ — ٢٤٠ .

(٩) تزيين الأسواق في اخبار العشاق (فصل في ذكر الاحتيال على طيف الخيال) ص ٤١٦، ٤١٨، ٤١٩ .

(١٠) كتاب التشبيهات من اشعار أهل الأندلس (باب في الخيال) ص ١٥٦ وبعدها .

(١١) الموازنة (الجزء المخطوط) ج ٢ ورقة ١٣٨ ظ نقلا عن طيف الخيال ص ٣٠ وبعدها

(١٢) طيف الخيال ص ٣ .

الزائر بطْش الهجر بلطف الوصل وخشونة الحاضر برفق الماضي وتمنع الأحداث باستسلامها ، فالخط الذي ينتظم صور الحلم يبدأ بإلغاء الزمان والمكان والطمس الأجتماعي ويمرّ بتحدّي أسباب الفناء والخواء ليستقر في احضان الحبيبة التي تبدو عاشقة قبل ان تكون معشوقة فتتحرك كما شاء لها هوى الشاعر وتلبي أوامره دون حرج ! ولان طيف الحبيبة ضرب من احلام اليقظة (وهومانؤسسه) فإننا نلحظ حالة من التمويه تنأى به عن مباءة اليقظة (١٣) ويمكن القول ان حلم الليل لايطمن حاجة الشاعر في توكيد ذاته وتحقيق ملذاته الصعبة ومثل هذا الحلم يجعله مسلوب الارادة متفرجا على نسخة له خرجت عن طوعه ! اما حلم القصيدة أو اليقظة فان صاحبه (حاضر في حلمه) وفيه (يبقى الشاعر بوضوح كاف على وعيه بانه يحلم لكي يسود على مهمة كتابة حلمه ؛ واي سمو وجودي هو ذلك الذي يحصل من تحويل حلم يقظة ما إلى عمل فني ومن كون المرء منشيء حلمه اليقظ) (١٤) واذا كانت لغة الخيال تستغرق الليل بالطيف والنهار بالشعر (١٥) فان الحلم في الحقيقة غير قادر على الإطلاق التخلص من عالم الواقع فأحلامنا تتصل دائماً بالأفكار التي كانت تشغل الشعور قبل وقوعها (١٦) والحبلْ الذي يربط بين مرتكزات الحلم ، الخيال ، القصيدة هو الذاكرة (١٧) وفي الشعر القبسلامي لوحات حلمية تعضد مثل هذا القول ، ولقد عقد القران بين الحلم والقصيدة (١٨) بينهما وبين المجازات وبين الثلاثة والرموز ، وكان ان عنيت العرب بتعبير الرؤيا وعدته علماً مثله في ذلك مثل العلوم الأخرى التي حذقتها نحو النسب والتأريخ والأنواء (١٩) ومن قبل كان البابليون يعدون الحلم موازيا للحقيقة ومساويا لايماءاتها (٢٠) ويبدو ان الاقتران بين الواقع والقصيدة وبين الأثنين والخيال وبين الثلاثة والحلم سيظل موضع دهشة الناقد إلى وقت طويل (٢١) .

(١٣) الصورة الفنية في شعر الشريف الرضي ص ٢٨٠ فقرة (ج)
(١٤) انشائية حلم اليقظة ص ١٠٥ .
(١٥+ ١٦) تفسير الاحلام ص ٩ ، ٤٨ ، ٥٠
(١٧) الزمن في الأدب ص ١٤، ٢٣، ٦٤ وانظر : الزمان الوجودي ص ٩٨.
(١٨) الصورة الفنية معياراً نقدياً (صناعة الحلم) ص ٣٠٩ .
(١٩) الملل والنحل ٢/٢٣٨ – ٢٤١ .
(٢٠) الحياة اليومية في بلاد بابل واشور ص٨ ٤٧
(٢١) الإقتران بين الحلم والقصيدة ص ٩ .

فالشاعر إنسان فطري رغم طبيعته المركبة وشاهد ذلك زعمه بانه يرى الذي لا يراه سواه وقديماً ابتدأت ملحمة جلجامش بهذه التوطئة (هو الذي رأى كل شيء فغن بذكره يابلادي) وغب ذلك عنى الشعراء القبسلاميون برؤية الذي لايراه سواهم !! قارن زهير بن ابي سلمى وامية بن ابي الصلت وقراد بن الأجدع :

× ألاليت شعري هل يرى الناس ماارى ×× من الأمر أويبدو لهم مابدا ليا
× الا ترون لما أرى × × ولقد أبان لكل لامح (٢٢) .
× فان يك صدر هذا اليوم ولّى×× فإن غداً لناظره قريب (٢٣)

ويحرص البحث على مقارنة هذه التأسيسات بشعر عنترة لنجد اقترانات جلية بين طيف الحبيبة وأوجاع الذات وبينهما وبين مفردات الهم الوجودي عبر مجازات الرؤية عنده فكل الواقع اذا شاءت القصيدة حلم شفيف وكل الحلم اذا شاءت واقع اليف ، ومن هنا نوسس ان طيف الحبيبة عند عنترة يمتد ويرتفع ليتضمن كل مفردات الحب والمقت والرغبة والرهبة وهذا الأمر كما ألمحنا في المقدمة سوغ لنا دراسة هذه الظاهرة المهمة في شعره .

* زيارة طيف الحبيبة لشعراء ماقبل الإسلام (ثانيا..)

يشغل طيف الحبيبة وجدان الشاعر الجاهلي فيمتد على مساحة واسعة من الشعر ، ونجرؤ على القول : أن بإمكان الدارس اكتشاف مقدمات حلمية لاتقل أهمية عن المقدمات الطللية أوالخمرية ونتساءل عن السبب الذي قد يكتب الحماسة وهي تضج بطيف الحبيبة الى اهمال الطيف والنأي عن عده بابا من ابوابها المعهودة (!) وقليلون اولئك الشعراء الذين لم يزرهم طيف الحبيبة (٢٤) اما الباقون فقد شغلوا بهذا الزائر الغريب وقد عدّ الأقدمون عمرو بن قميئة (أول شاعر نطق بوصف الطيف)

نـأتـك أمامـة إلا سؤالا وإلا خيـالاً يوافي خيـالا
يـوافي مـع الليـل مستـوطناً ويـأبى مـع الصبح إلا زيـالا
خيـالٌ يخيّـلُ لـي نيلها ولـو قـدرت لـم تخيـل نـوالا

(٢٢) ديوان زهير بن ابي سلمى ص ١٨٤+ ديوان امية بن ابي الصلت ص ١٦٩ .
(٢٣) الوسائل إلى مسامرة الأوائل ص ١٣٩ .
(٢٤) نذكر على سبيل المثال : امرأ القيس وحاتم الطائي وذا الاصبع العدواني ، انظر الدواوين

أراد ان الخيال الذي يطرق في النوم ويتمثل للراقد يأبى ان يزور النحيل المدنف الذي صار خيالاً من النحافة والنحول ... وإنما سمّي الناحل الذي قد ذاب جسمه وذهب لحمه وغاضت نضارته ... خيالاً تشبيهاً بالخيال الذي يتمثل للنائم وهو مما لا حقيقة له ولا وجدان وما زالت شعراء تصف الناحل بأنه خيال لا يحسّ ولا يدرك ولا يعلم) (٢٥) ونظير ذلك الصورة الحلمية التي اصطنعها عنترة :

فقلبي هائم في كلّ أرض يُقَبِّلُ إثْر أخفاف الجمال
جسمي في جبال الرمل ملقى خيالٌ يرتجي طيف الخيال (٢٦)

ولعل قيس بن الخطيم اكثر الشعراء وعياً لفعل الحلم الذي يحذف الشروط الزمانية والمكانية والاجتماعية ، فهو يسأل ابتداء كدأب شعراء عصره عن السبيل الذي سلكه الطيف إلى وسادته ! ثم يؤثّل معنى مؤداه ان الحلم فعل خارق يقرب البعيد ويطوّع الممتنع ، وما تمنعه الحبيبة على الشاعر نهاراً تمنحه به ليلاً .. بيد ان هذا المنح خادع لاخير فيه ..

أنّى سريت وكنت غير سروب وتقرب الأحلام غير قريب
ماتمنعني يقظتي توتينه في النوم غير مصرّد محسوب
كان المنى بلقائها فاميتها فلهوت من لهو امرىء مكذوب(٢٧)

ويساوي ابو صخر الهذلي بين السقام والطيف ورقية السحر فهذه مظنات للهلوسة وتخيل للصور الصعبة التي تروّض (الجنيّة) لتغفو على وسادة الشاعر

---

(٢٥) طيف الخيال ص ٩٨ ، ٩٩ وانظر ديوان عمرو بن قميئة ق ١١ب ١ ، ٢ أما ب ٣ فاعتمدنا فيه طيف الخيال .

(٢٦) ديوان عنترة ص ١٦٠ (ملاحظة) اعتمد بحثنا في توثيق الشعر على (شرح ديوان عنترة إبن شداد تحقيق سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب) واستأنس في حالات قليلة بـ (ديوان عنترة تحقيق ودراسة سعيد مولوي . فاذا قلنا (الديوان) مجردة فذلك يعني (شرح ديوان عنترة تحقيق الاخوين كاتب) وسوى ذلك نضع مولوي بين عضادتين . واقتصادا بالورق والمساهمة وضعنا الديوان والصفحة في المتن .

(٢٧) ديوان قيس بن الخطيم ص ٥٧ ق ٢ ب ١ – ٣ وقارن ص ٨١ (ألم خيال ليلى ام عمرو ولم يلمم بنا إلا لأمر) !!

ألا يا لقوم للسقام المعاود نكاساً وطيفاً من رقية عامد
يهيجني ليلا وذلك لا يرى نهاراً إذا ما كنت لستُ براقد
أهاويل من جنية كلّ ليلة ترافقني بالليل فوق الوسائد (٢٨)

يعد لحسان بن ثابت انه ابتكر صورتين لطيف الحبيبة ، ففي الأولى كمن ابتكاره في التلميح دون ذكر الطيف في الثانية اسس عبارة (فدع هذا) المشهورة مع طيف الحبيبة والطقس المألوف في هذا ان تقال عبارة (فدع ذا) مع اليأس عند الطلل من عودة الوصل وزمانه وعقد النية على اعتساف الناقة للسفر :

حي النضيرة ربة الخدر أسرت اليك ولم تكن تسري
فوقفت بالبيداء أسألها انى اهتديتِ لمنزل السفر
فدع هذا ولكن من لطيف يؤرّقني اذا ذهب العشاء (٢٩)

أما الاعشى فان اقوى صدمات اللذة والهياج عنده تكمن في شرب الخمرة السخامية : فإذا شبه خيال حبيبته بهذه الخمرة فان على البحث ان يخمن الدلالة من هذا الإقتران.

ألمّ خيالٌ من قتيلة بعدما وهى حبلها من حبلنا فتصرّما
فبتّ كأني شارب بعد هجعة سخامية حمراء تحسب عندما
إن كنت لاتشفين غلة عاشق صب يحبك يا جبيرة صادي
فانهي خيالك أن يزور فإنه في كلّ منزلة يعود وسادي (٣٠)

وتذكرنا اللوحة الثانية للاعشى التي يأمر فيها حبيبته ان تنهي خيالها عن الزيارة بلوحة نيل لطرفة بن العبد ، ومرّ بنا ان النقاد القدامى عدو طرفة أول من طرد الطيف وأهملوا ماسوى ذلك مما صاغه الشعراء ..

---

(٢٨) شرح اشعار الهذليين ص ٩٦٥ وللشاعر نفسه في (الخيال الطارق المتأوب) انظر ص ٩٣٦ . ٩٣٧

(٢٩) شرح ديوان حسان بن ثابت ص ٢٢٤ ص ٥٨ وانظر : وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية

(٣٠) ديوان الأعشى ق ٥٥ ب ١ ، ٢+ ق ١٦ب ٩، ١٠ (ملاحظة : ق = القصيدة . ب = البيت) وانظر الصورة الفنية في شعر الأعشى الكبير (صناعة الحلم عند الأعشى) ص ٢٧٤

فقل لخيال الحنظلية ينقلب اليها فإني واصل حبل من وصل (٣١)

فنحسب بشراً بن ابي خازم جريئاً في سؤالاته وشاهد ذلك انه يسمي الطيف احتلاما (وقد مرّ بنا في المستوى اللغوي بذاءة مفردة الأحتلام !!)

أحق ما رأيت أم احتلام ام الأهوال إذ صحبي ينام (٣٢)

اكتأب أوس بن حجر لانه لم يمتع نفسه بطيف الحبيبة في اول الليل بسبب من ان الطيف زاره بعد تصرّم الوقت وعبور ساعات من الليل .

ألم خيال موهناً من تماضرا هدواً ولم يطرق من الليل باكرا (٣٣)

لكن طيف حبيبة زهير اكثر كرما وادقّ موعدا من طيف حبيبة أوس ، فهو يبكر في الزيارة فضلا عن انه يعود الشاعر كلما ثوى في فراشه .

نالت بعاقبة وكان نوالها طيف يشقّ على المباعد منصب

في كل مثوى ليلة سار لها هاد يهيج بحزنه متأوّب (٣٤)

ويعن لعبيد بن الابرص ان يحتفل ابتهاجاً بزيارة خيال الحبيبة دون سابق وعد ويسوق تعجبه سؤالا في كيفية الوصول اليه واجتيازه المفازات المهلكة.

طاف الخيال علينا ليلة الوادي * لآل اسماء لم يلمم لميعاد

انى اهتديت لركب طال سيرهم في سبسب بين دكداك واعقاد (٣٥)

او انما تعجب الشعراء من اهتداء الطيف وتخلصه الى المضايق وخفى المسالك لانهم فرضوا زيارته زيارة حقيقية وطروقاً صحيحا فتعجبوا مما يتعجب من مثله في ذلك من طي البعد في اقصر زمان ومن الاهتداء بغير هاد ولا مرشد مع تراكم الظُلَم وتشابه الطرق) وثمة صورتان تمتلكان جدل العلة والمعلول انجزهما قيس بن الخطيم ؛ في الأولى يزور

---

(٣١) ديوان طرفة بن العبد ص ٩٢ ق ٦ ب ١٠ وانظر شرح ديوان لبيد ص ٢٦٦ ق٣٦ب٥١

(٣٢) ديوان بشر بن ابي خازم ص ٢٠١ ق ٤١ ب ١ .

(٣٣) ديوان اوس بن حجر ص ٣٣ ق ١٦ ب ١ .

(٣٤) شرح ديوان زهير بن ابي سلمى ٢٧٦ ق ٥٣ب ٢ ، ٣ .

(٣٥) ديوان عبيد بن الابرص ص ٦٢. * طيف الخيال ص ١٠٨ ١٠٣ .

خيال اميمة عجلان فيلبث الشاعر ساهراً ليل التمام بطوله ! وفي الثانية تعاتبه الحبيبة لسهره إذ كيف للخيال ان يزور الحبيب اليقظان .

* ألمّ خيال من اميمة موهنا * فلم اغتمض ليل التمام تهجدا
تقول ابنة العمري آخر ليلها علام منعت النوم ليلك ساهر (٣٦)

بعدها نختار لوحتين فنيتين الاولى للحارث بن حلزة والثانية لمعوّد الحكماء (معاوية إبن مالك ففيهما ثمة الحبيبة التي تأذن في الليل لخيالها بزيارة الحبيب لانها لم تعتد الذهاب برجليها الى دار الحبيب :

* طرق الخيال ولا كليلة مدلج* * سدكاً بأرحلنا ولم يتعرّج
أني اهتديت وكنتِ غير رجيلة* * والقوم قد قطعوا مكان السجسج
*طرقت امامة والمزار بعيد * وهناً واصحاب الرحال هجود
انى اهتديت وكنت غير رجيلة والقوم فيهم نبه ورقود (٣٧)

وقاريء ديوان عدي بن زيد واجدٌ لوحة حلمية توحي الطيف ولاتصرّح به الامن خلال الملامح المتعارفة له ..

انى طرقت ذوي شجْن تعودهم وكنت عهدي قطوف المشي محياراً
ولم يكن غير شوق بعد بارحة وغرب عين تسحّ العين اسرارا (٣٨)

واخيراً فثمة لوحتان اخريان ترشحان حزناً ؛ الاولى لتأبط شراً الذي يعلن استعداده لتقديم روحه ثمناً لزيارة طيف الحبيبة والثانية للمخبّل السعدي الذي يجعل ثمن زيارة الطيف اقلّ فداحة وهو سقم الروح وسجم الدمع ..

* ياعبد مالك من شوق وايراق* *ومرّ طيف على الأهوال طرّاق
يرى على الاين والحيات محتفياً نفسي فداؤك من سار على ساق

(٣٦) ديوان قيس بن الخطيم ص ٢١٩ ثم ص ١٩٨ ق ١٨ب ١ .
(٣٧) ديوان الحارث بن حلزة ص ٢٢ ق ٩ ب ١، ٢ وانظر في شعر معود الحكماء المفضليات ص ٣٥٥ق ١٠٤ ب ١ ، ٢ وانظر في المصد نفسه طيف حبيبة المرقش الأكبر ص ٢٢٣
(٣٨) ديوان عدي بن زيد ص ٥٠ ق ٦ ب ١ ، ٤ .

ذكـر الـرباب وذكـرهـا سـقـم فصبـا وليـس لمـن صبـا حـاـــم
وإذا المّ خيـالهـا طـــــرقـــت * عينـي فـمـاء شـؤونـها سجم (٣٩)

وغب زيارة طيف الحبيبة لعدد واسع من الشعراء الجاهلين تأيد لنا امكان عد طيف الحبيبة ظاهرة .

مهمة في الشعر الجاهلي اسوة بظواهر الأطلال والخمرة ولوحة الصيد والشكوى من الشيب ... الخ واذا قدّر لمؤلف محدث ان يصنع كتاباً في الحماسة فان من المنطق العلمي ان يفرد بابا في الحماسة لطيف الخيال سداً لصدع في معظم الحماسات القديمة لم يرأبه الواضعون ،، وقبالة هذا البلاغ سيكتشف اي باحث متأن ثوابت كثيرة بينها ان لوحة الطيف لاتحتمل التأجيل في القصيدة القبسلامية فموضعها في الأغلب بين البيت الأول والسادس .. وثمة ثوابت اخرى مبثوثة في عروق البحث اوجزناها في الخاتمة .

* طيف الحبيبة ورهبوت الداء عند عنترة (ثالثا)

اذا وهب دارس الطيف في شعر عنترة نعمة النصف فانه سيلاحظ الخيط السرّي أو الحلني الذي يعشق قطبي الهم عند الشاعر وهما طيف عبلة وخشونة الواقع وعندها يتيقن الدارس من اثر حياة عنترة (٤٠) في صناعة احلامه وقد مرّ بنا كيف تعامل عدد من الشعراء المترفين والبطرين مع الطيف فأتعبوه بالاسئلة الساذجة وفوتوا على الطيف

(٢٩) شعر تأبط شراً ١ ص ١٠٣ ق ٢٢ب ١، ٢ وفي شعر المخبل انظر المفضليات ص ١١٣ وقارن في المصدر نفسه ص ٢٩٨ شعر بيهس بن عبدالحارث .

(٤٠) لم نشأ التوغل في ترجمة حياة الشاعر وانما تركنا الأمر للمناسبة ، ومن شاء الاستزادة فثمة:
ا – اسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والاسلام. وكتاب القاب الشعراء (ضمن نوادر المخطوطات) وانظر المحبر لابن حبيب ت ٢٤٥ .
ب – الشعر والشعراء لابن قتيبة ت ٢٧٦ .
ح – الأغاني للاصبهاني ت ٣٥٦ .
د – المؤتلف والمختلف للآمدي ت ٣٧٠ .
ديوان المعاني للعسكري ت ٣٨٢ .
و – شرح القصائد العشر للتبريزي ت ٥٠٢ .
ز – خزانة الأدب للبغدادي ت ١٠٩٣ .
ح – وانظر المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام ثم الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي

وعليهم ، بل علينا نحن المتلقين سانحة السبر والاستكناه وهي اسئلة باردة تنم عن شعور فطير ، اما عنترة فهو عاشق محترق ولهب انفاسه يذيب الجنادل ويمحو نقوش المبرد ولن ينطفيء لهيبه بسوى لثم التراب ..

وقف لتنظر مابي لاتكن عجلا واحذر لنفسك من انفاس نيران (الديوان ٢٢٣)
وحرّ انفاسي إذا ما قابلت يوم الفراق صخرة أماعها (نفسه ١١٢)
وتخال انفاسي إذا رددتها بين الطلول محت نقوش المبرد (نفسه٨٠)
والثم أرضاً انت فيها مقيمة لعلّ لهيبي من ثرى الأرض يبرد (نفسه ٨٦)

ولن تذهب بنا أنفاس عنترة المحمومة بعيدا عن (سقم !!) اعتراه فتغلغل في روحه وجسده ولن يتعب البحث وهو ينقب عن جرثومة الداء ، فداؤه فادح فداحة لونه واحباطه وحساده واستحالة ابنة عمه إلى نمط من (التابو) (٤١) فلم تشر المظان انه نعم بوصلها أو الزواج منها سوى خبر انفرد به صاحب ديوان المعاني مؤدّاه ان عنترة بنى بعبلة بيدان الشعر لاينبيء بمثل هذا الخبر الواهن .. هو ذا يذكر (بعل) عبلة

فلرب أبلج مثل بعلك بادن ضحم على ظهر الجواد مهبل
(الديوان /مولوي ص٢٥٣)

وشاعرنا لايخبيء سقمه عن الاخرين وبخاصة عبلة .

ولقد شفى نفسي وابرأ سقمها قبل الفوارس وبك عنتر اقدم
(الديوان — المعلقة)

هو اذن مريض النفس والخاطر وعقاره وصل عبلة ؛ فاذا استحال الأمر فلا أقل من الطيف عنصراً مهدئاً ينقذه بالنسيئة من الاكتئاب

ان طيف الخيال ياعبل يشفى ويداوي به فؤادي الكئيب
وهلاكي في الحب اهون عندي من حياتي اذا جفاني الحبيب (الديوان ٢٧)

وسنفاجأ في لوحة حلمية اخرى الشاعر ميتاً (باعتبار ماسيكون) بمدية الجفاء والبعد ، فإذا غادر الشاعر موطن الحبيبة فان موطنها لابث فيه لايغادره .

---

(٤١) Taboo يشير هذا الاصطلاح إلى المحرمات والموانع التي يفرضها المجتمع على السلوك المحرم الذي قد يرتكبه الفرد ! انظر في ذلك : معجم علم الأجتماع ص ٣٥٥ فقرة ٢٥١.

ارض الشربة شعب ووادي رحلت وأهلها في فؤادي ..
(في البيت خلل عروضي !)

يحلون فيه وفي ناظري وان ابعدوا في محل السواد
اذا خفق البرق من حيهم أرقت وبتّ حليف السهاد
وريح الخزامى يذكرّ أنفسي نسيم عذارى وذات الأيادي
(نفسه ٥٩)

وفي هذه اللوحة تعتاد بين الحلم والصحو (ارقت / وبت حليف السهاد) استناداً الى استحالة الجمع بين نقيضين ؛ واذا كانت اليقظة خواء لا فائدة منه فان كبرياء عنترة تتكبد النزف تحت اهاب التوسل بالحبيبة واستجداء طيفها ...

أيا عبل مني بطيف الخيال على المستهام وطيب الرقاد
عسى نظرة منك تحبي بها حشاشة ميت الجفا والبعاد
(نفسه ٥٩)

وتطول اللوحة الثالثة وتعرض ؛ هوذا عنتره يواجه بشغاف القلب العليل مخالب الناس القاسية ونصال تمنع الحبيبة ليقرّ وحيداً مع قدره المعتم السواد ، وهو يتناوح لكي تتجاوب معه الطبيعة في بكائيه شعرية نادره .

اذا رشقت قلبي سهام من الصد وبدّل قربي حادث الدهر بالبعد
ليست لها درعاً من الدهر مانعاً ولاقيت جيش الشوق منفرداً وحدي
وبتّ بطيف منكِ ياعبل قانعا ولو بات يسري في الظلام على خدّي
فبالله ياريح الحجاز تنفسي على كبد حرى تذوب من الوجد

ويابرق ان عرّضت + وان خمدت نيران عبلة موهنا + وخلّ الندى ينهلّ فوق خيامها .

عدمت اللقا ان كنت بعد فراقها رقدت وما مثلت صورتها عندي
وماشاق قلبي في الدجى غير طائر ينوح على غصن رطيب من الرند
به مثل مابي فهو يخفي من الجوى كمثل الذي اخفي ويبدي الذي ابدي
(نفسه ٧٥)

وثمة الكثير من الطيور وبخاصة الغربان التي تروّع قلب الشاعر وتنذره بالشؤم ، فكأن ، ء لداء مستحكماً أوحباً بالغاً يجمع بينه وبين الطيور تلك

ظعن الذين فراقهم أتوقع ... وجرى بينهم الغراب الأبقع
حرق الجناح كأن يحيي رأسه ... جلمان بالإخبار هشّ مولع
فزجرته ان لا يفرّخ عشه ... ابداً ويصبح واحداً يتفجع

(نفسه ١٢٧)

وعادانـي غراب البين حتى ... كأنـي قد قتلت له قتيلا
وقد غنى على الأغصان طير ... بصوت حنينه يشفي الغليلا
بكى فاعرته أجفان عيني ... وناح فراد إعوالي عويلا
فقلت له جرحت صميم قلبي ... وابدى نوحك الداء الدخيلا

(نفسه ١٥٧)

ولنا أن نقارب لوحة رابعة ، تغاير عناصرها اللوحات السابقة ، فالشاعر لايستجدي طيف الحبيبة لأنه يأتيه طائعاً فيتوحد الخيال والهناء في احتفالية صاخبة تبذر حبات من الترهيب الذي نما واستطال بشكل غير اعتيادي ؛ ربما أثار فزع الرجال بله عبله ؛ والى جانب ذلك تنمو بذور الترغيب التي يسيل لمذاقها لعاب الغواني بتكرير ملذ لاسم صاحبة عنترة يقظا وحالما ..

* برد نسيم الحجاز في السحر ... إذا أتاني بريحه العطر
ألذّ عندي مما حوته يدي ... من اللآلي والمال والبدر
.. ياعبلُ نارُ الغرام في كبدي ... ترمي فؤادي بأسهم الشرر
ياعبل لولا الخيال يطرقني ... قضيت ليلي بالنوح والسهر
ياعبل كمْ من فتنةٍ بُليت بها ... وخضتها بالمهند الذكر
والخيلُ سودُ الوجوهِ كالحة ... تخوض بحر الهلاكِ والخطر
أدافعُ الحادثاتِ فيكِ ولا ... اطيقُ دفع القضاء والقدر

(نفسه ١٠٨)

عنترة كما تشي قصائده وأخباره فتى مأزوم يشكو سقما اضرّ نفسه كثيرا ؛ الا تراه يقظاً مثله حالماً ؟ ! فهو لسبب لاشأن له فيه منتم إلى مغبة العبيد الذين لاتلمح صورهم إلا من خلل الأعطان والحلب والرعي أو القدور والطبخ او الظعن والأمتعة ! ولا يمكن لدارس العصر القبسلامي التهوين من حاجز اللون ذي الوطء الثقيل (٤٢) وعنترة إلى هذا مغموز الأرومة ؛ فإذا قابلنا بين مثبطات لايَدله فيها ومجتمع لايستطيع تجاهلها ، ثمّ توسمْنا عنترة العاشق الأبديّ للحرية وطيفها بما يوازي او يزيد عشقه لعبلة وطيفها ؛ عنترة المتفوّق همة وذكاء (٤٣) أدركنا حجم محنته وأدركنا ملامح الحلم عنده . فهو السبيل المُمَهد المؤدي إلى تفسير شخصيته (٤٤) وشاعرنا وفاق هذا السياق يرى إلى نفسه فوق الآخرين !! .

وإن ابصرتِ مثلي فاهجريني ولا يلحقكِ عارٌ من سوادي
وإلاّ فاذكري طعني وضربي إذا مالجّ قومُك في بعادي
(الديوان ٦٢)

وقد تكون عبارة (فوق الآخرين) مأخذاً على البحث ،، بيد ان الشاعر يؤكد ذلك بل ويؤكد ماهو فوق ذلك (!) .. الا نراه معاً طائرا والناس يدبون تحت حوافر فرسه ! صورة حلمية .. ومرضية أيضاً ، يسوّغ المبالغة فيها إحساس الشاعر ان المجد كامن في الموضوع وليس في الذات

أنا العبدُ الذي سعدي وجدّي يفوقُ على السُّهى في الارتفاع
سموتُ إلى عنان المجد حتى علوْت ولم أجد في الجوساعي
...وفي كفي صقيل المتن عضْب يداوي الرأس من ألم الصداع
(نفسه ١٢٢)

---

(٤٢) معجم علم الأجتماع / حاجز اللون / ص ٦٦ ونؤثل ان الفطرة العربية منحازة إلى الخير والمروءة ، وقد تعلقت الأجيال بشخصية عنترة المكتنزة بالمروءة والتي تخطت حاجز اللون وصار عنترة مثلا للفتوة العربية .
(٤٣) سايكولوجية المتفوقين عقليا (المقدمة) .
(٤٤) المدخل إلى علم النفس الحديث (الأحلام) ص ٣٦٣ .

يـاعبل إن كـان ظـلُّ القسطـل الحلك أخفى عليكِ قتالي يـوم معتـرك
فسـائـلي ← فرسي + وسائـلي ← السـيف + وسائلـى الـرمْح .....
لـولا الـذي ترهـب الأمـلاكُ قدرته جعلت متْن جوادي قبة الفلك (نفسه١١٤)

عنترة عاشق من طراز استثنائي لم تألفه ذاكرة العشق ، احبّ عبلة وافترض انها تحبه ، وحين عالجته صورة الشك عاجلها بالترهيب والترغيب ؛ فإذا استحالت مطاوعة يدها البضة البيضاء ليده الخشنة السوداء فرّ منه اليه ولاذ بالطيف لكي يرأب احباطه وينال من الحبيبة كلّ مااختزنته رعود الشباب ونزواته وتجرأ عليها ومعها بسلوك لم تألفه الحبيبة! فالعاشق (محاول العرى) بازاء عبلة التي (تنفست) فاغرته انفاسها وصنعت به ماصنعته انفاس حبيبة المنخل اليشكري بالمنخل (٤٥) والعاشق يضمّ حبيبته إلى صدره ويمطرهـا قُبلا بعـد ان كشف (برقعها) وكل هذه الاشارات تمنحنا اذناً في القول ان عنتـرة طوّع حبيبته التي (افترض حبها له) من خلال (رقية الطيف) والا فمن اين له ان ينال كل الذي ناله وبينهما الذي بينهما .. فهي في جو السماء كوكب لاتلمسه يد الشاعر

وليـت خيـالا مـنك ياعبـل طارقاً يرى فيض جفني بالدموع السواكـب
سأصـبر حتى تطرحـني عـواذلي وحتى يضجّ الصبرُ بـين جوانبي
مقامك فـي جـوّ السـماء مكـانه وباعي قصيرعن نوال الكواكب(الديوان٣٠)

ثم يصدم الشاعر متلقيه بسلوك الرغبة في بث الخوف في قلب الحبيبة التي وصلته (في الحلم) ودون خبائها (اسد الشرى) .

زار الخيالُ خيال عبلـة في الكـرى لمتيـم نشـوان محـاول العـرى
فنهضت اشكـو مالقـيت لبعدها فتنفسـت مسكاً يخالط عنبـرا
فضممتهـا كيـمـا أقبـل ثغرها والدمع في جفنيّ قـد بـلّ الثرى
وكشفـت برقعهـا فأشرق وجههـا حتى أعـاد الليـل صبحاً مُسفـرا
عـربيـة يـهـتـز ليـن قـوامهـا فتـخالـه العشـاق رمحاً أسمـرا
محـجـوبـة بـصـوارم وذوابـل سُمر ودون خبائها أسد الشرى(نفسه١٠١)

(٤٥) شرح ديوان الحماسة ٤٧/٢ قارن قول المنخل :
ولـثمتهـا فتنفسـت ×× كتنـفس الظـبي الضـريـر

و المعضلة تكمن هنا، فالشاعر مرتو في حمه مكتو في صحوه ، ، وحبيبته لاتمنحه حين تصله في اليقظة شيئاً مما توهم .

تلاقينا فما اطفا التلاقي لهيباً لا ولابرد الغليل (نفسه ١٥٤)

وقد يزعم انه ذاق فاها في الصحو دون ان يخفف ذلك من انكساره ، فالقبلة لاتطفيء لهيبه أيضاً ... ألم نقل ان سقامه مستعص .

هذه نار عبلة ياناديمي قد جلّت ظلمة الظلام البهيم
تتلظى ومثلها في فؤادي نارُ شوقي تزداد بالتضريم
ضرمتها بيضاءُ تهتزّ كالغصن إذا ما انثنى بمر النسيم
كاعب ريقها الذُّ من الشهْد إذا ما زجته بنت الكروم
كلما ذقتُ باردا من لماها خلته في فمي كنار الجحيم
(نفسه ٢٠٥)

والمعضلة لما تزل قائمة ، فقاريء عنترة يتمثل في ذهنه صورة الحبيبة مسبية بالحياء الأنثوي وجبينها يتفصد عرقا ، حين تلتقي عاشقها النهم على اريكة الحلم ، اما العاشق فيلتقي الطيف الحيي بالضم والقبل .. بل انه لايدع لها سرا مكنونا .. فهو فتى مجرب بازاء فتاة غريرة لاتشاطره الظمأ والوساوس لانها لم تمتلكهما ! وبكبرياء الفرسان يجعل الشاعر متلقيه متمثلا لتفاصيل اخرى في الصورة ، فاذا عبلة عاشقة .. تطاب عنترة وتبادر بزيارته .. خادشة قشرة الخجل ؛ فتقبله وتبثّ فيه اللهب وتودّعه مذهولا .. ويقرر البحث بشيء من الاطمئنان ان عناقيد ضائعة من الصورة الفنية بين (أتاني) و (ودعني) أو ان الشاعر أتلفها عامداً ..

أتاني طيف عبلة في المنام فقبلني ثلاثا في اللثام

مساحة مكتظة بعناقيد الصور الفنية المفقودة أو التالفة :

وودّعني فأودعني لهيباً استره ويشعل في عظامي
ولولا انني اخاو بنفسي واطفي بالدموع جوى غرام
لمت اسىً وكم اشكو لأني أغار عليك يابدر التمام

أيا ابنة مالك كيف التسلي وعهد هواك من عهد الفطام
عليك أيا عبيلة كلّ يوم سلامٌ في سلام في سلام (نفسه ٢١٥)

لقد رحل عنترة سقمه على كلّ مفردات الوجود وجعل صوره ترشح لهباً في مناحة اشتركت فيها رموزه التي يهواها / .. الأشجار / .. الطيور / .. ليالي الوصل / ... وعبلة قبل هذا وبعده هي الوجه الآخر لعنترة.. الوجه المتفائل الجميل وحبها يشتعل في عظامه لأنه شيء من حبه للجمال في ذاته .. ألم يرضعا الحب (من عهد الفطام) ! ولعلّ عبلة تمثل في وعيه رهانا (ينبغي ان يكسبه) فيه وبين الآخرين .. فالعبد الأسود معشوق والغانية البيضاء عاشقة عبلة بهذا التقرير تمثل جنون الحرية عند عنترة .

طيف الحبيبة ورغبة الشفاء (رابعاً)

عنترة كما تجلوه صور الطيف رجل مكروب اكتظ رأسه بالآلام ، وحاجز اللون ثمة يسحق بينه وبين نبع الحلم ،وهو من قبل ومن بعد..فارس المروءة الأكيدة فإذا غلظ مجتمعه معه ان له نَفساً باذخة تسعى حثيثاً إلى فرك الأنوف وارغامها على الأعتراف به ، هو ان الفقير الثري والعبد الحر والمنبوذ المعشوق والمهجور الموصول .. ومثل هذه التقابلات لا تجتمع في سوى خيمة الحلم في النوم أوالقصيدة والتوقع في الواقع قد عادل الانكسارات بالصمد الإنساني الجبار .. وبهذه فقط يمكن تعليل نأيه عن جمعات الصعاليك .. جبروته لم يسوّغ له فكرة الأنفصال عن القبيلة أو الجماعة ان كانت أسباب الأنفصال قائمة .

وقومي مع الأيام عون على دمي وقد طلبوني بالقنا والصفائح
قد ابعدوني عن حبيب أحبه فاصبحت في نفر عن الأنس نازح
(نفسه ٤٧)

لولا صارمي وسنان رمحي لما رفعت بنو عبس عمادا (نفسه٦٦)
بنيت لهم بالسيف مجداً مشيداً فلما تناهى مجدهم هدموا مجدي(نفسه٧١)
ساحلم عن قومي ولو سفكو دمي واجرع فيك الصبر دون الملا وحدي
(نفسه ٨٢)

بني عبس سودوا في القبائل وافخروا بعبد له فوق السماكين منبر (نفسه٩٥)
(أحب بني عبس) ولو هدروا دمي محبة عبد صادق القول صابر
وادئو إذا ما ابعدوني والتقى رماح العدا عنهم وحرّ الهواجر (نفسه٩٩)

ولسنا ميالين إلى عدّ عبلة حبْل الشاعر الأمتن الذي يربطه بالقبيلة بحسبان الرغبة في اثبات الذات والتفوق على الأقران حبله الامتن وتندرج عبلة ضمن هذا الحسبان ، وذلك لايمنع النظر إلى واحد من بياناته التي تجعل عبلة رابطاً بينه وبين القبيلة .

ولولا فتاة في الخيام مقيمة لما اخترت قرب الدار يوماً على البعد
(نفسه ٨٢)

فعبلة كما رأينا وجه عنترة المليح ، صوت الداخل الجريح ، فاذا تفوّق عليها تفوّق على ضعفه بعد ان فاق بالسيف الصقيل عتاة الفرسان وبالشعر الجميل قصائد الأقران ولن نستخف برغبة الشاعر في امتلاك ناصية الثناء .. وبخاصة ثناء عبلة التي امرها ان تثني عليه بما تعلم فهو سمح المخالقة إذا لم يظلم .

اثني عليّ بما علمتِ فإنني سمْحٌ مخالقتي إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسلٌ مرٌّ مذاقتهُ كطعم العلقم (نفسه /المعلقة)

الترغيب ← صدر ب ١
الترهيب ← عجز ب ١ + صدر ب ٢ + عجز ب ٢

اما الاخرون .. فليس ثمة بينه وبينهم ترغيب ، انما ترهيب متصل الحلقات .. فما بينه وبين رموز المقت حجاب سوى المنية التي حاكته أو حاكاها في اكثر من صورة

إن المنية يا عبيلة دوحة وأنا ورمحي أصلها وفروعها
يا عبل لو ان المنية صوّرتْ لغدا إلىّ سجودها وركوعها نفسه (١٢٤)
انا الموت الا انني غير صابر على أنفسِ الابطال والموت يصبر
(نفسه ٩٥)
ان المنية لو تمثل مُثّلت مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل
(الديوان / مولوي٢٤٦)

وفي كفى صقيل المتن عضب يداوي الرأس من ألم الصداع (الديوان١٢١)

والثناء خلوص ينم عن الأعتراف بالفضل فهو بهذا المعنى قرار تأنس اليه النفس التي تبترد بسلسبيله .

نبئت عمرا غير شاكر نعمتي والكفر مخبثة لنفس المنعم (نفسه/المعلقة)

فلا تكفر النعمى واثن بفضلها ولا تأمنن مايحدث الله في غد (نفسه٤٢)

وفي الشعر الجاهلي توكيدات على اقتران الثناء بالآلاء .. وكان الحادرة يقول

فاثنوا علينا لا أبا لأبيكم بإحساننا ان الثناء هو الخلد (٤٦)

ولعبلة اذا احتارت ان تتبين جلية الأمر واذا جهلت ان تسأل الخيل وهي معادل فني اكيد للفرسان .

هلا سالت الخيل يابنة مالك إن كنتِ جاهلة بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الوقيعة انني اغشى الوغى واعفّ عند المغنم

(نفسه/ المعلقة)

وأكثر السّهام سُمّاً ذلك الذي يطلقه الحسّاد حين يؤمّلون تشويه مروءته وتهوين شأن سُطاه على الآخرين

* ورغمت أنف الحاسدين بسطوتي فغدوا لها من راكعين وسجّد (الديوان ٨٢)

بل ان كبد الشاعر مسقومه بمواجع الحسد ،وهو غني نفساً لم يرد عدلاً فيما رآه .. وعيناه تريان رؤوساً موضعها الأذناب ، واشباها ينعمون بغبائهم وصغارهم ويتحكمون في أقدار القبيلة ويهنأون بالصبايا ، فأية مهزلة حمّت على الكون

* وما هذه الدنيا لنا بمطيقه وليس لخلق من مداراتها بدّ

تكون الموالي والعبيد لعاجز ويخدم فيها نفسه البطل الفرد

وكل قريب لي بعيد مودّة وكلّ صديق بين اضلعه حقد

(نفسه ٦٧)

---

(٤٦) ديوان الصادرة ص ٧٣ ق ٤ ب ٩ .

الدنيا حلـم مفزع لا يحبه الشاعر ، وطيف الحبيبة واقع متخيّل يتمناه ، ولكن الأمور ليست بمساحة الحلم وليجرب عنترة شفاءه المستحيل هازئاً بالطبيب الذي لا يتقن سوى جسّ النبض

* يقـول لك الطبيـب دواك عنـدي إذا مـا جسّ كفـك والـذراعـا
ولـو عـرف الطبيـب دواء داء يـردّ المـوت مـا قاسى النـزاعـا
... وسيفي كان في الهيجـا طبيبـاً يـداوي رأس مـن يشكـو الصداعـا

(نفسه ١٢٦)

فلنلاحظ مكمن الدواء في نفس لا أمل في برئها .. لأن مواجدها كثر

* سـلي عنـا الفـزاريـن لمّـا شفينـا مـن فـوارسهـا الكبـودا

(نفسه ٦٣)

وبين يدي البحث عشرات الشواهد التي ناءت بها الجذاذات وهي تؤكد اصرار عنترة على تضخيم دائه ليكون الدواء عسيرا

* اعـلّـل بالمنـى قلبـاً عليـلا وبالصبر الجميـل وإن تمـادى
تعيّـرني الـعـدا بسـواد جلـدي وبيـض خصائـلي تمحـو السـودا
سـلي يـا عبل قـومك عـن نعالـي ومَـن حضـر الوقيعـة والـطـرادا

(نفسه ٦٥)

وتأيّد للبحث ان سقم عنترة لا يمكن ان يفهم إلا في إطاره الوجودي الشامل ليكون وصلة عبلة عقارا مهدئاً لواحد من آلامه (الم الصدّ)

* فهـل تسمـح الايـامُ يا ابنة مالك بوصل يداوي القلب من الـم الـصدّ

(نفسه ٨٤)

والإطار الوجودي يجلو صورة عنترة كما هي .. بين زمانين .. زمان الشاعر وزمان الآخرين .

* ويح هذا الزمان كيف رماني بسهام صابت صميم فؤادي
(نفسه ٧٧)

* وما عاب الزمان رفيع شاني ولا حطّ السواد رفيع قدري
(نفسه ٩٤)

عندها يفهم وجع عنترة ومكمن الداء فيه حين يزهد بالوصل لحظة يكتشف ان المرأة ليست علاجاً ناجعاً لوباء الزمان ..

* فلله قلب لا يبلّ غليله وصال ولا يلهيه من حلّه عقد
(نفسه ٦٧)

ويفهم أيضاً شغف صاحبنا بالنار واللهب فهما التطهير المقترح لعنائه في زمان يوصد الأبواب في وجوه الضعفاء

* اذا كان دمعي شاهدي كيف اجحد ونار اشتياقي في الحشا تتوقد
وهيهات يخفى ما اكنّ من الهوى وثوب سقامي كلّ يوم يجدد
أقاتل اشواقي بصبري تجلداً وقلبي في قيد الغرام مقيد
(نفسه ٨٦)

بعدها يذعن الاعداء صاغرين ، فبينهم وبين حلمهم في النيل من سطوة عنترة نضالٌ لا يهدأ ، وصبر لا يكلّ

* ولا أبقي لعذالي مجالاً ولا اشفى العدوّ بهتك سري
(نفسه ٦٤)

* ولا أسلو ولا أشفي الأعادي فساداتي لهم فخر وفضل
.. ينادوني وخيل الموت تجري محلك (لا يعادله) محلّ
(نفسه ١٦٠ وبعدها)

لقد ارتدى الاعداء لبوس الزمن ، أو ارتدى الزمن لبوس الأعداء ضمن مواصفة من التحولات مذهلة (٤٧) فالآخرون رموز الزمن وهم مرضى في نظر عنترة وإذا كانوا

(٤٧) الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام (تحولات الزمان) ص ١٧٩ وبعدها .

كذلك فلا ينبغي ان يمنحوا سانحة للشفاء ،، فهل كان الشاعر يرحّل داءه نحوهم ؟ هل اسقط بعض ما فيه على تلك الرموز ؟ ربما ولكن عنترة منحاز إلى الخير وشتان بين الدائين والمحورين ، فإن اشتفى قلب العدو في غفلة من المنطق .. فإن الاسى سيملأ باحة الصورة

* فوا اسفا كيف اشتفى قلب خالد بتاج بني عبس كرام العشائر
(نفسه ٩٩)

وكأننا الآن نصل إلى قرار مؤداه ان عنترة ساع إلى بث الرهبة في قلوب الآخرين ليفرغ قلبه منها ، وإلى صناعة الصور غير المحتملة في وجدانهم .. وبهاتين يتمثل الشفاء .. من مهانة العبودية التي تزدرد كبرياء المنعمين .. وعبلة منعمة .. إلا انها مشروع لإدراك مقام الفتى عنترة الذي لا ينافسه فيه احد ..

* .. انا (العبد) الذي خبرت عنه يلاقي في الكريهة (الف حر)
.. وها انا قد برزت اليوم اشفي فؤادي منكم وغليل صدري
(نفسه ١٠٨ وبعدها)

ثنائيات وتقابلات يضج بها الشعر عما ضج بها من قبل زمن الشاعر
عبد × حر / داء × شفاء / سواد × بياض / خيبة × أمل

لكن النضال الدؤوب يربّي الآخرين ويطوّع اخيلتهم بحيث يرون سواده بياضاً ويكون داؤه دواء وخيبته املا .. في لوحات تقترب من مفردات الحلم

* جعلت منامي تحت ظل عجاجة وكأس مدامي تحت جمجمة الراس
ومن قال اني اسود ليعيبني أريه بفعلي انه اكذب الناس (نفسه ١١١)

وتكون الحصيلة على هذا الضرب
القتال + الشعر + الحبيبة (في إطار التفوّق) ← شفاء
القتال + الشعر + الحبيبة (في إطار التفوق) ← سقم

بهذه الجدولة يكون شاعرنا محموماً يريد ان يحرق ويحترق دون ان تفارقه بسمة التماسك

* خاقت للحرب احميها إذا بردت واصطلي بلظاها حيث احتدم
والتقي الطعن تحت النقع مبتسماً والخيل عابسة قد بلها العرق

(نفسه ١٣٦)

يذكر التاريخ ان فارس عبس وقف مرة ليردّ العدوان الفارسي على الأرض العربية ووجد عنترة سانحة للحرية تزجر بارحة الضعف ، فكيف خاطب جيش العدو (١٦) !

* نفّسوا كربي وداووا عللي وابرزوا لي كلّ ليث بطل

(نفسه ١٥٤)

فماذا ترك السقم من عنترة أو ماذا ابقى له .. فهو صورة متحوّلة .. وطلل آيل وخيال زائل ..

* ولو اني كشفت الدرع عني رأيت وراءه رسماً محيلا

(نفسه ١٥٨)

* وجسمي في خيال الرمل ملقى خيال يبتغي طيف الخيال

(نفسه ١٦٠)

سبل عنترة إلى الفوز بصاحبة الطيف (خامساً)

تنهض الشواهد الشعرية بين يدي البحث لتؤشر اتباع عنترة طرائق عديدة حسبها قادرة على طي اوجاعه وسقمه أو نشرها قبالة صاحبة الطيف ، وهذه الطرائق لا تنأى عن محوري الترغيب الترهيب ، وربما خاض الشاعر المخاضات وجاز المباءات بسبب من رغبة في الفوز بقلب عبلة مهما كان الثمن شريطة ان لا يخدش ذلك كبرياءه المهيض ، فهو يقسم لها على هواه وانه مكتف بزيارة خيالها ، بيد انه يلمح إلى انه قدر على رياضتها ذات مرة !

* قسماً يا عبل يا أخت المها بثنايا‌ك العذاب القبل
وبعينيك وما قد ضمنت من دواهي سحْرها والكحل
انني لولا خيال طارق منكِ ما ذقت هجوع المقل (نفسه ١٥٤)

فاذا هبت ريح وقت الأصيل المقترن بذكريات الوصل اختلج الشاعر وحسب ان شميمها يشفي شطراً من علله ..

* إذا ريح الصبا هبت اصيلا شفت بهبوبها قلباً عليلا (نفسه ١٥٦)

ولا مفر من ترهيب عبلة التي سترى بنات جنسها من قرائب اولئك الذين يزعجون حبيبها وهي شعث الشعور نائحات نادبات ..

وقد كنت اخشى ان اموت ولم تقم قرائب عمرو وسط نوح مسلّب
شفى النفس مني أو دنا من شفائها تردّيهمُ من حالق متصوب (نفسه ٢٧٨)

إتساقاً مع الصورة ذات الأثر الترهيبي يصطنع الشاعر عشرات الصور الأخرى كي تبث الهلع في نفس العاذل ..

اعاذل كم من يوم حرب شهدته له منظر باد النواجذ كالح (الديوان)
(مولوي ٢٩٧)

بل اقفرت السبل إلا من عنترة المخيف وعبلة الخائفة غب انحسار ظل العاذل المقتول (باعتبار ما سيكون) وتهشّم صور الفرسان المناوئين ؟ الجواب ليس بالإيجاب لابد ان يمعن الشاعر في الترهيب فيفهم الحبيبة المترفة التي تجهل الكثير عن اوجاعه والنساء رهن اشارته وطوع نزواته

تغزّيت عن ذكرى سمية حقبة فبح عنك منها بالذي انت بائح
(الديوان ٢٩٧)

ما استمت انثى نفسها في موطن حتى أوافي مهرها مولاها
غشى فتاة الحي عند حليلها وإذا غزا في الحرب لا اغشاها
(الديوان / مولوي ص ٣٠٤)

وكواعب مثل الدمى أصبيتها ينظرن في خفر وحسن دلال (نفسه ٣٣٦)

وليس من اليسر ان يذهب بنا الظن إلى ان عنترة فتى لاه عابث لا قيم عنده ولا مثل، فهو مثل التحدي ، يغشى الفتاة الممنعة ، واذا كانت وحيدة دون حماية فإن مروءته تحميها وسواه الذي ينتهز ضعف الحسناء ، اليس عنترة هو القائل ..

* واغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها
اني امرؤ سمح الخليقة ما جد لا اتبع النفس اللجوج هواها

وإذا سألت بذاك عبلة خبرت ان لا اريد من النساء سواها (الديوان / مولوي ٣٠٤)

* ونحفظ عورات النساء ونتقي عليهن ان يلقين يوماً مخازيا (نفسه ص ٣٤٠)

واية سخرية مرة انتابت عنترة وهو يرى الخوف في عيني عبلة عليه ، وهو يسمعها تطلب اليه النجاة بنفسه ، أكانت تراه ضعيفاً إلى هذا الدرك ..؟

* تقول ابنة العبسي قرب جمالنا واقداسنا ثمّ انج إن كنت ناجيا

فقلت لها من يغنم اليوم نفسه وينظر غدا يلقى الذي كان لاقيا (نفسه ٣٢٦)

موقف الحبيبة يشي انها لم تستطع تخيل فتاها الذي لم يعن بشكله قادر على اصباء فتاة سواها ، فهل كان السماح له بحبها ضرباً من الشفقة ؟ وموقف العاشق ينضح بالتماسك الحق او المفتعل ، فهو قادر على رأب صدع الكبرياء بفتاة غريرة تبيت اسيرة مشيئته الصاخبة ، وقدرته مرئية من كوة واقع وقع فعلاً او فعل لم يقع الا في مخيلته المسكونة بأطياف الحبيبة

* من كل فائقة الجمال كدمية من لؤلؤ قد صورت في عاج

أبصرت ثمّ هويت ثم كتمت ما القى ولم يعلم بذاك مناج

فوصلت ثم قدرت ثم عففت من شرف تناهى بي إلى الانضاج

(الديوان ٤٥ وبعدها)

بل ان الشاعر قادر على تملّق كبريائه بإصطناع وصل عبلة حبيبته الممنعة ، فقد افلح (عنترة) في صنع لوحات فنية تامة تراءت من كووها عبلة البيضاء لحظة اللهو مع الحبيب الأسود وربما ظن النظر العجلان ان لهو العاشق بالمعشوقة كان ثمرة طيف بخيال ولكن النظر المتريث يكشف ولع عنترة بتوكيد الوصل بعيداً عن هشاشة الحلم

* أشاقك من عبل الخيالُ المبرج فقلبك فيه لاعج يتوهج

فقدت التي بانت فبت معذبا وتلك احتواها عنك للبين هودج

لئن اضحت الأطلال منها خواليا كأن لم يكن فيها من العيش مبهج

فيا طالما مازحت فيها عبيلة ومازحني فيهما الغزال المغنج

لهوت بها والليلُ أرخى سدوله إلى أن بدا ضوء الصباح المبلج

راعي نجوم الليل وهي كأنها قوارير فيها زئبق يترجرج
وتحتي منها ساعدٌ فيه دملج مضيءٌ وفوقي آخر فيه دملج
(نفسه ١٩ ، ٤٢ ، ٤٥)

لقد مازج الشاعر في اللوحة السابقة بين طيف الخيال وضيف الواقع ضمن ولعه بتطويع الحبيبة في الواقع من خلال تطويع صورتها في الشعر ، ولكنه في اللوحة اللاحقة يمازج بين التصريح والتلميح لحظة عملية التطويع التي أشرنا اليها.فيذكر دار عبلة مصرحاً ثم يسوق ابياتاً تخفف من بطش التصريح ليصل بها نثاراً من الصور الفنية التي تجلوه مع غادة بلا ملامح سوى دالة الجمال التي استأثرت بها عبلة بين دفتي الديوان فهو يلهو مع الغادة ملمحاً

دار لعبلة شطّ عنك مزارها ونأت ففارق مقلتيك هجوعها
... كم ليلة عانقت فيها غادة يحيا بها عند المنام ضجيعها
شمس اذا طلعت سجرت جلالة لجمالها وجلا الظلام طلوعها (نفسه١٢٤)

وقد رصدنا لوحات كثيرة اصطنعها الشاعر باتجاه تطويع الحبيبة فعن لنا تفريقها وتبويبها وصولا إلى اتجاهات القصيدة في الفوز بقلب عبلة واستكمالا لفعل طيف الحبيبة في عملية التطويع (النمط الأول) يكشف لنا عددا من النساء اللواتي امسين ملك يمين الشاعر في طقوس لايسهم فيها الحب فهنّ مخلفات الرجال الخائفين الذين فرّوا بعارهم ابتغاء النجاة وسنلاحظ بعضهن (عوذ) في فترة النفاس ولم يمض على وضعهن مواليدهن سوى سبعة ايام .

فخلوا لنا عوذ النساء وجببوا عباديد فيها مستقيم وجامح
وكلّ كعوب خدلة الساق فخمة لها منبت في آل ضبة طامح(نفسه ٥١وبعدها)
وخليتنا نساءهم حيارى قبيل الصبح يلطمن الخدودا
سلي ياعبل قومك عن فعالي ومن حضر الوقيعة والطرادا
وكم خلفت من بكر رداح بصوت نواحها تشجي الفؤادا(نفسه٦٣ ــ ٦٦)
وتضج النساء من خيفة السبي وتبكي على الصغار اليتاما (نفسه ٢١٣)

وهو في كل مايصنع ساع إلى ترهيب الحبيبة فيشعرها ان المكان والزمان طوع سيفه فهو

الموت الذي لايقدر احد ان يردّه إذا حمّ ، وكم من امرأة حرة (قبل عبلة) اجهشت بالبكاء حين قطع سيف عنترة رقبتي بعلها واخيها .

يـاعبـل كـم مـن حـرة خليتها تبكي وتنعى بعلها وأخاها (نفسه٢١٣)
وانـا المنـية وابـن كـل منية وسواد جلدي ثوبها ورداها (نفسه ٢٤٢)

(النمط الثاني) نساء هذا النمط في ممازجة بين الحلم واليقظة لابثات في حوانيت الخمرة أو (البيوت المظلمة) وهن يمتاكن أسباب الإغراء الذي ينسي الشاعر المتماسك مقامه فيحسب نزوته عشقا وقت ينذهل باصطناعهن الخفر والدلال ..

ولـربّ شـرب قـد صبحت مدامه ليسـوا بـأنكـاس ولا أوغـال
وكـواكـب مثل الدمى أصبيتها ينظرن في خفر وحسن دلال (نفسه١٦٤)

ولن يغفل الشاعر شأنه فإذا شرب فإنه مستهلك ماله (وعرضي سالم لم يكْلم) وسيتذكر في قصفه حبيبته ويذكرها فيما بعد .

يـامن رمت مهجتي مـن نبل مقلتها بأسهم قـاتلات بـرؤهـا عسـر
نعيـم وصـلك جـنـات مزخرفة ونار هجرك لاتبقـى ولا تـــذر
سـقـتك يـا عـالـم السعدي غادية مـن السحاب وروى ربعك المطـر
كـم ليـلة قـد قطعنـا فـيك صالحة رغيـدة صفـوهـا ما شابه كـدر
معْ فتية تتعاطى الكـأس مترعـة من خمرها كلهيب النار تزدهـر
إن عشـت فهي التي ما عشت مالكتي وان امت فالليالي شأنها العبر (نفسه٩٣)

(النمط الثالث) وهن نساء اغراهن الشاعر فطمعن في الزواج منه دون ان يفلحن في تطمين حاجتهن اليه ، وإلى جانبهن نساء أخريات يمنحن ولايمنعن ، وهن في كل مايفعلن مسحورات مبهورات ، ويشرقن في الصور الفنية مليحات ممنعات قدر عليهن عنترة مع انهن (املح) من عبلة ، فهل كن بعضاً مما غنمه السيف .

لـو كان قلبي معي ما اخترت غيركم ولا رضيت سواكم في الهـوى بـدلا
لكنه راغـب فيمـن (يـعذّبـه فليس يقبل لالوماً ولاعذلا(نفسـه ١٧٧)
فـأرى مغانم لـو أشـاء حـويتها فيصدني عنها كثير تحشمي(نفسه٢١٠)

لاتصرميني يا عبيل وراجعي فيّ البصيرة نظرة المتأمل
فلربّ (أملح) منكِ دلا فاعلمي واقرّ في الدنيا لعين (المجتلي)
وصلت جبابي بالذي أنا أهله من ودّها وانا رخي المطول
(الديوان / مولوي٢٥٣)

ولربّ يوم قد لهوت وليلة بمسوّر ذي يارقين مسوّم
ولقد كشفت الخدر عن مربوبة ولقد رقدت على نواشر معصم (نفسه٢٢١)

(النمط الرابع) واتساقاً مع فكرة تطويع الحبيبة — هذه الفكرة — التي يلتقي عندها الواقع والتوقع والحلم والصحو فان هذا النمط يجلو لنا عبلة امرأة مسلوبة الإرادة ضعيفة الحال بما يجعلها مهيأة للسبي أو الهدّي ، ومثل هذه الشطحة المتخيلة تبث الفزع في قلب عبلة ، اما عنترة فان الصورة المتخيلة هذه لاتفزعه حسب وانما تشعره بالغثيان وتعرّضه للجنون ..

ذكرت صبابتي من بعد حين فعاد لي القديم من (الجنون)
أيأخذ عبلة وغد ذميم ويحظى بالغنى والمال دوني
(الديوان ٢٣٤ — ٢٣٥)

ويواجهنا الشاعر في لوحة تامة فتى نحيلا شاحبا رثّ الهيئة يثير دهشة الحبيبة تارة وضحكها أخرى فيعلن ان ذلك ماكان ليكون لولا تبريح هواها وشغله بالقتال والرجال لاتكال بالقفزان ولا توزن بالميزان ، فمثل هذا النحيل قادر على ان يجندل الفرسان ، بل انه قادر على قتل (بعل) عبلة الأبيض الضخم .

عجبت عبيلة من فتى متبذل عاري الأشاجع شاحب كالمنصل
شعث المفارق منهج سرباله لم يدّهن حولا ولم يترجل
فعجبت منها كيف (زلت عينها) عن ماجد طلق اليدين شمردل
اما تريني قد نحلت ومن يكن غرضاً لأطراف الاسنة ينحل
فلرب ابلج مثل (بعلك) بادن ضخم على ظهر الجواد مهبل
غادرته متعفراً أوصاله والقوم بين مجرح ومجدّل

..ياعبل كم من غمرة باشرتها بالنفس ما كادت لعمرك تنجلي
فيها لوامع لو شهدت زهاءها لسلوتِ بعد تخضب وتكحل
(الديوان / مولوي٢٥٣)

وحين خطبها (مسحل بن طراق الكندي) دعاه الشاعر إلى المبارزة فكان له ما أراد وانتهت المبارزة بقتل الخطيب ، فأنشد الفارس العاشق مزهواً :

إذا افتخر الجبان ببذل مال ففخري بالمضمّرة العتاق
واني قد سبقت لكلّ فضل فهل من يرتقي مثل المراقي
(الديوان ١٤ وبعدها)

وكان على عبلة أن تقرّ نفساً لأن فارسها مهيأ لأن يتلبس المنية أو يطوعها
يا عبل لو ان المنية صورت لغدا إلىّ سجودها وركوعها(نفسه١٢٤)
ولن يظفر بها احد سواه ؛ وقد قتل كما مرّ بنا مسحلاً الكندي ثم ألحق به فتى آخر خطبها من ابيها ويدعى بسطام بن قيس بن مسعود ، فارس شيبان كلّها وابن فارسها ويبدو ان عنترة لم يكن جاداً في قتل هذا الفارس الشيباني بيد ان موافقة عم عنترة (والد عبلة) كلفت فارس شيبان حياته .. فمن المسؤول عن قتله والظلم الذي حاق به ..

يابني شيبان عمي ظالم وعليكم ظالمه اليوم رجع
ساق بسطاماً إلى مصرعه عالقاً منه بأذيال الطمع (نفسه١٢١)
ويلخص الشاعر سلطانه على نحو يجعل الشانئين يرون عنترة في احلامهم !!
واصبح من يعاندني ذليلا كثير الهمّ لايفديه فادي
يرى (في نومه) فتكات سيفي فيشكر مايراد إلى الوساد (نفسه٦٢)
اما طيف الحبيبة فانه متضامن مع الشاعر وتأسيساً على هذا التضامن فإنه يقرن بين ارتواء السيف من دم الأعداء وارتواء العين من طبق الحبيبة في محاولة اخرى لسدّ المسافة بين الحلم والصحو .

إذا لم اروّ صارمي منْ دم العدا ويصبح من افرنده الدم يقطر
فلا كحلت اجفان عيني بالكرى ولاجاءني من طيف عبلة مخبر(نفسه٦٤)

وهل عبلة سوى فتاة ، فاذا كانت وهي المنعمة الممنّعة عرضة لخطر الآخرين فان صاحباتها لسن باحسن حالا منها ! وكما نهد الشاعر لحماية الحبيبة فانه سينهد لحماية نساء القبيلة ، وسيبطش باولئك الذين يمنون أنفسهم بالظفر بحسناوات مثل الظباء ويتخيلون لعابهم وهو يسيل شبقاً على شفاههن ..

ابينا ابينا أن تضب لثاتكم على مرشفات كالظباء عواطيا
(الديوان مولوي٢٢٤)

ومرقصة رددت الخيل عنها وقد همّت بالقاء الزمام
فقلت لها أقصري منه وسيرى وقد قرع الجزائز بالخدام(نفسه٢٤٠)
ومغيرة شعواء ذات أشلة فيها الفوارس حاسر ومقنع
فرجتها عن نسوة من عامر أفخاذهن كأنهنّ الخروع (نفسه٢٦٢)

(النمط الأخير) يمثل عنترة في الصورة رجلا صارماً تتمناه كل انثى متمناة لنفسها بيد انه لايمنح هواه لسوى عبلة وقد مرّ بنا في النمط الثالث اللامية (الديوان ص ١٧٧) التي ردّ فيها ام الفتاة التي رغبت في عنترة بعلا لواحدة يختارها من بناتها شريطة ان يقيم في بيتها ، واعتذار عنترة لأن قلبه (راغب فيمن يعذّبه) وسيمرّ بنا لاحقا ان سميّة وهي زوج ابيه وقعت في حب عنترة (كذا) وانه زجرها ولطم كبرياءها فاصطنعت احابيل خشنت قلب ابيه عليه فساط الوالد ولده فوثب قلبه سميّة بين أضلاعها وتجللت عنترة محتملة السياط بدلا منه ..

أمن سمية دمع العين تذريف لو أن ذا منك قبل اليوم معروف
كأنها يوم صدّت ماتكلمني ظبي بعسفان ساجي الطرف مطروف
تجللتني اذ اهوى الفضا قبلي كأنها صنم يعتاد معكوف
(الديوان — مولوي ٢٦٩)

ويغيظ الشاعر كون الواقع ليس من صنع يديه فهو لايرى حبيبته التي تعيش في ظل رجل سواه بينما يعيش العاشق مع زوج لايحبها ،فتند عنه عبارات لم نألفها منه مع كل النساء فلماذا يقسو على زوجه ولايؤثرها بشيء .. ولماذا اختبأت ملامحها خلف غبار كثيف ؟

لاتذكري مهري وما اطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجرب
ان الغبوق له وانتِ سوءة فتأوهي ماشئتِ ثمّ تحوّبي
ان الرجال لهم إليك وسيلة ان يأخذوك تكحّلي وتخضّبي (نفسه ٢٧٢)

تصاقب الطيف والطلل (سادساً)

ادرك البحث من خلال الاعمدة الماضية شغف الشاعر بصناعة الصور المتخيلة المتعاشقة مع احلامه وفاق هواه الصعب ومزاجه العنيف ، فهو يطرّح احلامه ليطوّع حبيبته بها وربما نأى عن الطيف ملياً ليعود اليه بثمار اجتناها ، وربما لايعود ولكنه اخيراً يحقق الفعل الذي كان يمكنه الحلم تحقيقه ، وقد تسنى للبحث رصد جدل مناسب بين مفردات الطلل والحلم فكلاهما ينبع من قريحة واحدة ويعبّر عن هموم واحدة ويصبُّ في رغبة واحدة ، فالعمر طلل ، والزمان طلل ، والحبيبة هي الحياة والطلل يختزن طيف الحبيبة كما تختزن الغيوم الرعود ، وإذا كان الطلل قادراً على إبكاء الشاعر فان الحلم قادر على منح اللوعة حالةً من الانتشاء

الا يادار عبلة بالطوي كرجع الوشم في كفّ المدي (الديوان٢٤٦)
قف بالديار وصحْ الى بيداها فعسى الديار تجيب من ناداها
دار يفوح المسك من عرصاتها والعود والندّ الذكي جناها
دار لعبلة شطّ عنك مزارها ونأت لعمري ماراك تراها (نفسه ٢٤٠)
دار لآنسة غضيض طرفها طوع العناق لذيذة المتبسم (نفسه ــ المعلقة)

وهذه صور فنية مرشحة لكشف العلاقة السرّية بين طلل الحبيبة وطيفها فإذا هجرت عبلة دارها الأول وحلّت دار بعيدة فإن عنترة قادر من خلال رقية الحلم أو القصيدة على استحضارها .

ودع العواذل يطنبوا في عذلهم فأنا صديق اللوْم واللوّام
يدنو الحبيب وان تناءت داره عنّي بطيف زار بالأحلام
فكأن من قد غاب جاء مواصلي وكأنني اوفى له بسلام

(نفسه ٢٠٩ وبعدها)

يـــاعـبـــل لـــو ان الخـيـال يـزورنـي على كـــلّ شـــهر مـــرّة لكفـاني
لئـن غبت عن عينّي ياابنـة مـــــالك فشخصك عندي ظاهر لعيان (نفسه٢٢٤)

وليس الطلل احجاراً ورماداً وان استحال ملعباً للبهائم غبّ هجرة الحبيبة وانما هو بؤرة للذكرى الحزينة يرى فيها الشاعر أيامه الخوالي وساعـات الهناءة وخيلاء الشباب ، وإذا صحّ الأمر على هذا النحو فان الطلل يلبث واحداً من الرموز التي تشيع في النفس كوامن الوجد فهو بين جيشين جيش الواقع وجيش المجاز .

وارجـو الـتـدانـي مـنك يابنة مـالك ودون التداني نـار حرب تضـــرّم
ألم تسـمـعـي نوح الحـمـائـم في الدجى فـمـن بـعـض اشجاني ونـوحـي تعلموا
ولم يبق لي ياعبـل شخص مـعـــرّف سـوى كـبـد حرّى تذوب فـأ سقم
وتـلك عـظـام باليات واضلـــع عـلى جـلـدهـا جيش الصدود مخيّم
وان نـام جفـنـي كأن نومي عـلالة أقول لـعـلّ الطيـف يـأتـي يسلّم
احـنّ الى تـلك المـنـازل كـلـمـا غـدا طـائـر في ايـكـه يتـرنّـــم

(نفسه ٢١٢ وبعدها)

وقد لانرى صورة الطلل ونرى بديلها صورة الطيف كما مرّ بنا ، وان خلّو الصور من الطيف لايعني نقاءها ونأيها عن الطيف فثمة تشابك في الصور بانتظار التقويم النقدي الذي يميّز ويبوب .. فمثل الطائر الذي تعلم النوح من عنترة يمكن ان ينوح في فضاء مفتوح ليمنحنا سانحة لتصوره في الذهن داخل اطار الطلل .

كيف الـسـلـوّ وماسـمعت حمائـما ينـدبـن الاكـنـــت اوّل بـــــاك
بـعـد المـزار فـعـاد طـيـف خـيـالها عـنـي قـفـار مهامه الأعناك (نفسه ١٤٤)

واخيراً نلتقي لوحة كبرى حرص فيها الشاعر على تجاهل ذكر الطلل تاركاً للمتلقى متسعاً من التعارف في اقتناص دلالات الطلل من خلال مفردات طيفية عديدة بادئاً القصيدة بمقابلة شجية بينه وبين القبيلة بؤرة الوجع في وجدانه التي أدركت موضع عبلة في نفسه فكانت تلمح أوتصرح للشاعر بزوال حاجز اللون عند الفزع واذا مضى هاجس الفزع ليحل مكانه هاجس الطمع عادت القبيلة الى سابق موقفها فنكثت الوعود السخية وسنلاحظ

مقابلات اخرى بين الأسود والثعالب والأحباب والأعادي والمكان الأليف والمكان الآبد

ينادونني في السلم ياابن زبيبة وعند صدام الخيل ياابن الاطايب
ولولا الهوى ماذلّ مثلي لمثلهم ولاخضعت أسد الفلا للثعالب
فياليت ان الدهر يدني احبتي الىّ كما يدنى الىّ مصائبي
وليت خيالا منك ياعبل طارقاً يرى فيض جفني بالدموع السواكب
مقامك في جوّ السماء مكانه وباعي قصير عن نوال الكواكب

(نفسه ٣٢ وبعدها)

* الخاتمة وثمار البحث (أخيراً)

لم يكن طيف الحبيبة في الشعر الجاهلي وبخاصة في شعر عنترة أمراً عابراً لتشيح عنه الأقلام بمدادها ، فهو ظاهرة جليلة الخطر لاتقل اهمية عن كثير من الظواهر التي حفل بها الشعر الجاهلي العتيد الذي كان بحق ديوان العرب وإذا كنا قد اخترنا للتطبيق المنهجي شعر عنترة فانما لنقل البحث من التنظير الى التطبيق ونجلو الغبار عن جانب لم يجل في شخصيته رمز شعري جاهلي فقد قدّمت اقلام السلف هذا الرمز (عنترة) مؤتلفة مع اقلام الخلف شخصية هذا الشاعر عصية لاتمتلك كبير وقت للمشاعر الرقيقة التي ربما اضعفت مقامه وبددت ملامح القوة عنده وقد اوجز البحث ما انجزه في صعدة طيف الخيال ووضع الثمار في السلة كما يقال ونسأل الله التوفيق

١ــ تهيأ للبحث انه كشف مظنات الطيف في صور كثيرة لم تصرّح بذكر الطيف.وعالج التعاقبات . بين طيف الحبيبة ومفردات اخرى يجيء الاحساس بالسقم ومناجاة الطلل في مقدمتها :

٢ ــ وتأيد للبحث ان طيف الحبيبة كان شاغل جلّ الشعراء الجاهليين وبخاصة عنترة بما يسوّغ لنا القول بان شعره منماز بطيف الحبيبة .

٣ ــ اعتماد صور الشاعر الفنية على مفردات الطيف (الحلم) ظاهرة أومستترة .

٤ ــ طيف الحبيبة ومفرداته ايماءات تقترب كثيراً ــ حدّ الملاصقة ــ من احلام اليقظة ، فالشاعر يصنع احلامه بما يهيء الظن انه ينقل احلامه لنا بهيئة شعر اي انه لاينقل احلامه الى دائرة الشعر وانما ينقل الشعر الى دائرة الاحلام .

٥ — ليس بأيدينا وثيقة عن مقدار شعر عنترة المفقود الذي تضمن ذكراً لطيف الحبيبة. واذا افترضنا انه ليس ضئيلا امكننا القول ان عنترة اسس فناً جديداً لايختلف عن فن الوقوف على الاطلال او الرحلة او الصيد او الخمرة او المديح .. ونعني به طيف الحبيبة

٦ — لم يلحظ البحث وجود ايقاعات خاصة تناسب الطيف وكنا قبل ابتداء البحث نقدر ان البحور الصافية او الرتيبة أدخل في باب الطيف من سواها بيد ان النتائج وجدت الامر مختلفاً مع عنترة الذي نوّع ايقاعات الطيف .

٧ — معظم صور طيف الحبيبة الفنية مبتكرة وهو لم يستجد الطيف او الحب الا في أقل القليل .. بل كان عارماً وخشناً مع الحبيبة وطيفها بما يرضي كبرياءه الجريح ونفسه العطشى لتوكيد الذات .

٨ — وتأيّد للبحث أيضاً ان عنترة مأزوم يعاني سقماً ممضا وانه بحث عن الشفاء المستحيل في جماجم السادة والأقران ووسادة صاحبة الطيف واعتراف الآخرين بسلطانه البالغ .

٩ — تجرأ الشاعر رغم ماعرف عنه من تعفف ومروءة في بعض صوره الحلمية فيصور عبلة في مشاهد الوصل بشيء من التصريح .

١٠ — صور الفزع ذات سلطان في غزل الشاعر فهو يطلب الى الحبيبة ان تشهد المجازر البشرية التي صنعها سيفه وان تسأل الخيل والطيور والحيوانات المفترسة عن سطوته فكأنه تقصدّ ترهيب الحبيبة .

١١ — ركزت الصور الحلمية على الجمال الروحي وقللت من شأن الجمال الحسي ، والأمر جلي فالشاعر المحروم من الوضاءة والجمال الظاهري انما يفاخر بجمال الروح ومزايا المروءة والإقدام ويرى الفرسان المنعمين بالجمال والحب محررين من الجمال الروحي ..

١٢ — كشف الطيف تشكك عنترة في حب عبلة فهو غير مطمئن الى انها خالصة المشاعر نحوه فتارة ،يحذرها من الوشاة والعذال واخرى يهدّدها بالتلميح وثالثة يباهيها بحب الأخريات له .

١٣ ــ ثمة لازمة في لوحة الطيف تتركز في ان عنترة يستطيع بيسر (!!) إصباء العذارى والحوامل أو قتل الفرسان الاشداء بيد انه لايستطيع حماية قلبه من عيني عبلة وسهامها القاتلة ، ويجد متعة في تكرار مثل هذا القول !

١٤ ــ يقترح البحث (على الصعيد الاكاديمي والأدبي) تسويغ بحث طيف الحبيبة في الشعر الجاهلي وشعر العصور اللاحقة أوعند واحد من الرموز الشعرية الذي يمثل عصره بحق بما يغري طلبة الدراسات العليا والباحثين في رصد هذه الظاهرة المتميزة .

** قائمة موحدة بالمصادر والمراجع **

* اتجاهات شعر الغزل في عهد الطوائف . انقاذ عطاالله محسن العاني . رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الاداب في جامعة بغداد ١٩٨٦ (مطبوعة بالآلة الكاتبة)
* اخوان الصفا . د. مصطفى غالب . مطبوعات دار مكتبة الهلال . بيروت ١٩٧٩ .
* الأقتران بين الحلم والقصيدة . د . عبدالاله الصائغ . صحيفة القادسية رقم ٩ بمناسبة مهرجان المربد السابع ، عدد السبت ٢٢ ــ ١ ــ ١٩٨٦ .
* الأغاني . ابو الفرج الاصبهاني ت ٣٥٦ طبعة روائع التراث العربي . بيروت ١٩٧٠
* أمية بن ابي الصلت حياته وشعره تحقيق بهجت الحديثي . مطبعة العاني .بغداد ١٩٧٥
* انشائية حلم اليقظة (كوجيتو الحالم) جاستون باشلار ترجمة ابو يعرب المرزوقي . مجلة الثقافة الاجنبية . بغداد العدد ٢ السنة ٢ صيف ١٩٨٢.
* تزيين الأسواق في اخبار العشاق . داود بن عمر الانطاكي ت ١٠٠٨هـ مطبعة دار ، الهلال بيروت ١٩٨٤ .
* تفسير الاحلام . سيجموند فرويدت ١٩٣٩م ترجمة مصطفى صفوان . مطبعة دار المعارف بمصر (د ؛ ت) .
* الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور . جورج كونتينو ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي مطبعة دار الحرية بغداد ١٩٧٩ .
* خزانة الأدب ولب الباب لسان العرب: البغدادي عبدالقاهر بن عمرت ١٠٩٣ تحقيق

عبدالسلام محمد هارون ... مطبعة دار الكتاب العربي . القاهرة ١٩٦٧

* خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجددة . محمد صادق حسن . مطبعة دار الفكر العربي بالقاهرة (د:ت)

* ديوان الاعشى الكبير (ميمون بن قيس) تحقيق محمدمحمد حسين . مطبعة دار النهضة بيروت ١٩٧٤ .

* ديوان امريء القيس تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٩ .

* ديوان أوس بن حجر تحقيق د . محمد يوسف نجم .مطبوعات دار صادر .بيروت١٩٦٠

* ديوان بشر بن أبي خازم ، تحقيق د.عزة حسن،مطبعة محمود هاشم ،الطبعة الثانية دمشق١٩٧٢.

* ديوان حاتم الطائي تحقيق . د . عادل سليمان . مطبعة المدني بالقاهرة (د:ت)

* ديوان الحادرة تحقيق د . ناصرالدين الأسد.مطبعة دار صادر .بيروت . الطبعة الثانية ١٩٨٠ .

* ديوان الحارث بن حلزة تحقيق هاشم الطعان. مطبعة الارشاد .بغداد ١٩٦٩ .

* ديوان ذي الاصبع العدواني جمع وتحقيق عبدالوهاب العدواني ومحمد نايف الدليمي مطبعة الجمهورية . بالموصل ١٩٧٣ .

* ديوان الصّبابة . المغربي : شهاب الدين احمد بن حجّلة ت ٧٧٦ ضمن كتاب تزيين الأسواق في اخبار العشاق .منشورات حمد ومحيو. بيروت . الطبعة الاولى ١٩٧٢ .

* ديوان طرفة بن العبد تحقيق درية الخطيب ولطفي الصّقال . مطبعة مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٧٥ .

* ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق د. حسين النصار .مطبعة البابي بمصر . الطبعة الاولى ١٩٥٧ .

* ديوان عدي بن زيد تحقيق محمد جبار المعيبد . مطبعة الجمهورية .بغداد ١٩٦٥ .

* ديوان قيس بن الخطيم تحقيق د. ناصر الدين الاسد مطبعة دار صادر بيروت . الطبعة الثانية ١٩٦٧ .

* ديوان عمرو بن قميئة تحقيق خليل ابراهيم العطية.مطبعة الجمهورية . بغداد ١٩٧٢ .

* ديوان عنترة تحقيق محمد سعيد مولوي مطبعة الشركة المتحدة بيروت ١٩٧٠
* رسائل اخوان الصفاء مطبوعات دار صادر بيروت ١٩٥٧
* الزمان الوجودي . عبدالرحمن بدوي مطبعة مكتبة النهضة بمصر . الطبعة الثانية ، ١٩٥٥ .
* الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام . عبدالاله الصائغ . الطبعة الثانية ١٩٨٦ مطبعة دار الشؤون الثقافية بغداد .
* الزمن في الأدب . هانز ميرهوف ترجمة د. سعد رزوق مطبعة سجل العرب بالقاهرة ١٩٧٢ .
* زهر الآداب وثمرة الألباب الحصري القيرواني ت ٤٥٣ تحقيق زكي مبارك مطبعة دار الجيل بيروت ١٩٧٢ طب رابعة .
* سايكولوجية المتفوقين عقلياً . أديب الخالدي مطبعة دار السلام بغداد طبعة ثانية ١٩٧٦
* شرح اشعار الهذليين صنعة السكري ت ٢٧٥ تحقيق عبدالستار فراج مطبعة المدني ، بالقاهرة ١٩٦٥ .
* شرح ديوان الحماسة . الخطيب ت ٥٠٢ مطبعة ، عالم الكتب بيروت (د:ت)
* شرح ديوان حسان بن ثابت تحقيق عبدالرحمن البرقوقي مطبعة الاندلس بيروت ١٩٨٠
* شرح ديوان زهير بن ابي سلمى صنعة ثعلب ت ٢٩١ مطبعة الدار القومية بمصر ١٩٦٤
* شرح ديوان عنترة بن شداد تحقيق سيف الدين الكاتب واحمد عصام الكاتب مطبعة مكتبة الحياة بيروت ١٩٨١ .
* شرح القصائد العشر .الخطيب ت ٥٠٢ تحقيق د . فخرالدين قباوة مطبعة المكتبة العربية بحلب . الطبعة الثانية ١٩٧٣
* الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي د. عبدة بدوي مطبعة الهيئة المصرية ، بالقاهرة ١٩٧٣
* شعر تأبط شراً تحقيق سلمان داود القرغولي وجبار تعبان مطبعة الأداب في النجف الطبعة الاولى ١٩٧٣ .

* الصورة الفنية في شعر الشريف الرضى . د. عبدالاله الصائغ ، كتاب آفاق عربية رقم ٧ سنة ١٩٨٥ مطبعة دار آفاق عربية . بغداد
* الصورة الفنية معياراً نقدياً . د . عبدالاله الصائغ . الطبعة الاولى ١٩٨٧ مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد .
* طيف الخيال . الشريف المرتضى ٤٣٦ تحقيق حسن كامل الصيرمي مطبعة البابي ، بالقاهرة الطبعة الاولى ١٩٦٢ .
* كتاب التشبيهات من اشعار اهل الاندلس . الكتاني ت نحو ٤٣٠ تحقيق د. احسان، عباس مطبعة سميا بيروت (د : ت) .
* لسان العرب . ابن منظور ت ٧١١ مطبعة دار صادر بيروت (د: ت)
* المؤتلف والمختلف . الآمدي ت ٣٧٠ تحقيق عبدالستار فراج مطبعة دار احياء الكتب بالقاهرة ١٩٦١ .
* المدخل الى علم النفس الحديث . ركس نايت ومرجريت نايت ترجمة د. عبدعلي ، الجسماني مطبعة آفاق عربية بغداد ١٩٨٤ .
* معجم علم الاجتماع دنكن ميشل ترجمة د. احسان محمد مطبعة دار الحرية بغداد ، ١٩٨٠ .
* المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام د. جواد علي مطبعة دار العلم للملايين بيروت الطبعة الاولى ١٩٧١ .
* المفضليات . المفضل الضبي ت ١٧٨ تحقيق احمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، مطبعة دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة ، ١٩٦٤ .
* الملل والنحل . الشهر ستاني ت ٥٤٨ تحقيق محمد سيد كيلاني مطبعة المعرفة بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٥ .
* الموازنة . الآمدي ت ٣٧٠ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد مطبعة السعادة بمصر الطبعة الثالثة ١٩٥٩ .

* نوادر المخطوطات تحقيق عبدالسلام هارون مطبعة البابي بمصر الطبعة الثانية ١٩٧٢.
* وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية د. نوري حمودي القيسي مطبعة مؤسسة دار الكتب بجامعة الموصل ١٩٧٤ .
* الوسائل الى مسامرة الاوائل . السيوطي ت ٩١١ . تحقيق د. أسعد طلس مطبعة النجاح بغداد . ١٩٥٠